كليّة التربية

القصة القصيرة:

لبنان أحلامنا

خاص بالطالب :

الاختصاص	التربية / التربية المختصة
اسم الطالب	ريمي خالد وهبة 1120003
الإيميل	Rkw003@usal.edu.lb

الأحد الخامس من شهر شباط

السابعة والنصف مساءً

شارع الحمرا

ليالي بيروت العريقة، في ذلك المقهى يوجد أناس منهم من طلب النبيذ في الكأس العتيقة ويسكرون من الفرح لا من رشفة الكأس. ومنهم من طلب كوب قهوة من دون قطعة السكّر المكعبة فنجمة من سماء بيروت تكفي لتحسّ بطعم الحلا. هناك في صدر المقهى طاولةٌ رديئة نسي النادل أن يمسحها بورقِ الجريدة، ورغم ذلك جلستُ عليها. حييت النادل برأسي وطلبت فنجان قهوة مرّة كأيامنا بعد بضع دقائق أتى النادل بها وللأسف لم يرَ وساخة الطاولة فاضطررت الى تنبيهه عليها لكنه زمجر فيّ وكأنه ليس واجبه أن يقوم بما أمرته. وحملتُ قلمي ودفتري كي أكتب يومي كي لا أنساه، فأنا معروفٌ بنسياني لأمور وأحداث تافهة. أيامي ذاتها فلا أعرف لماذا لا أذكر منها شيء. أحبّ النظر في وجوه الناس وتحليلها، أحبّ أن أرى كيف تسير حياتهم وإنّ كانوا مثلي لا يروا لسيرها أيّ فائدة. أشاهد وأحللّ وأكتب على دفتري، فمثلًا على يميني يجلسُ شابٌ ذو ثيابٍ أنيقة مع فتاةٍ كعودِ الكمان تضحك فينزل عن فمها سمفونيّة حزينة رقيقة. كانا حديثي الحب، كلامهما خجولٌ ويحاول الشاب امساك يد حبيبته لكنها باستيحاءٍ تضرب يده بخفّة. أما على يساري يجلسُ عجوزٌ قد غطّ الشيب ملامحه التعيسة، وأمامي هذا الفراغ يحولُ دون أن يمسك بالفريسة. ولكن –قسم مني بكسرة الهاء– يساري يرمقني بنظرةٍ مريبة، يساري يرعبني كأنّني أرى نهايتي قبل أن تبدأ وهذه هي الحقيقة!. كتفانِ محنيانِ، شعر لا أكاد أرى منه شيئًا من شدّة بياض هذه الشعرتان أكاد أعمى، يمضغ الطعام بلثّته فلا أسنان تساعد ولا قدرة جسديّة سوى أصوات همهماتٍ تجعلني أريد تحطيم رأسي.

أمامي زجاجٌ شفاف– بعد طاولتين فارغتين من طاولتي– خلف هذا الفراغ متسوّلٌ قد جعل من كيس نفاياته حقيبة يحملها خلف ظهره المحني –رغم صغرِ سنه– ولكن الحياة لا ترحم حتى من يأتيها بعطر أولى لحظاتِ تفتّح الوردِ. ثم يتربّع على رصيف الوجع قرب شجرةٍ لا يكسوها سوى عراها فيها ازدهارٌ أكثر من وجهه الشاحب، ويتسوّل بعض حباتِ خبزٍ خفيفة أو حتى قطعة نقديّة صغيرة لا يهمّ. كان تارةً يهمّ بالجلوس، وأخرى يدور بين الطاولات الخارجيّة فيتأفأف الجالسون ومنهم من يحملُ أغراضه ويرحل تاركًا هذا الصبي لصقيع الشتاء. كم كتمَ السكوتُ صرخاتِ الأحياء حتى ظنّ الموت أننا متنا فتركنا على هذه الأرصفة. تُرى ما ردة فعل الموت عند تسليم هذا المتسوّل لأوراق الترحال عنها؟. وكيف لا أذكر ليالي بيروت الحزينة؟.

آه من تلك اللّيالي الرتيبة. ما رأيته جعلني أشعر بالخنقة واللّوعة على ما آل إليه حالنا، حتى نحن الجالسون على هذه الطاولات ألسنا متسوّولون لأشياء أخرى؟ نشحذُ تارةً حلمًا وتارةً شعورًا.

ألسنا عبيد مالٍ يجلسنا في هذا المقهى كأمراءٍ يريد صاحبه أن يخدمنا برموش عينيه؟...
سأسكتُ قليلًا.

أعطي النادل بعضًا من البقشيش وأخرج من ذلك المقهى القاتم وأتوه في ظلمةِ تلك الأزقة الرفيعة بعد أن اجتزت ذلك المتسوّل. إنه لأمرٍ يثير السخرية صحيح؟، هه كنتُ أحاضر بما حصل لنا وأنا لا أمدّ يدي كي أساعد هذا الصبيّ ليعود الى منزله باكرًا فيدفء جسده بخرقة متسخة. ثم أدير وجهي قليلًا لأنظر إليه بطرفِ عيني اليسرى، كان كمن جُرّد من إنسيته حتى صار شبحًا بعد أن مدّ لي يده وتخطيته دون أدنى تعاطفٌ منّي نحوه. لستُ غنيًّا كا يراني، فأنا أفقر الناس معروفٌ اللّبناني بحبه للزينة حتى ولو كان سيحرمُ نفسه من لقمةِ الطعام لا يهم، المهم أن يلبسَ هندامًا ذو قيمة.

لكنه لم يخجل ومشى ورائي، وهو بجانبي وأنا أمشي ويحادثني، كنت أخطف بضع نظراتٍ بين الفينة والأخرى عليه.

الصبي:"أرجوك ولو مبلغًا صغيرًا، الله يحميك ويرزقك."

أنا:"أيّها الصبي حالي أفظع منك كفى."

الصبي:"كيف يكون حالك أفظع مني، الآن خرجت من مقهى لا أستطيع حتى الحلم بدخوله."

أنا:"أين أهلك يا ولد؟."

الصبي:" أبي مريض."

أنا:"وأمك؟."

الصبي:"في البيت."

توقفتُ عن المشي فتوقّف.

أنا:"لماذا يخلفوننا إن لن يحملوا همنا؟، الدولار بخمسين ألف أخبر أمك التسوّل لن يجدي نفعًا عليكم بطريقة أخرى، ها أنا موظفٌ أشعر بالترف لجلوسي في مقهى هذا الحيّ حتى أشرب فنجان قهوة بحق ربع راتبي."

الصبي:"ماذا سينقصك إن أعطيتني ولو عشرة ألاف؟."

أنا:"لماذا أعطيك؟، أعطني سببًا واحد."

الصبي:"لأن الانسان عليه مساعدة أخيه الإنسان."

أنا:"هه ما هذه الكذبة التي تعلّمناها في كتاب التربية المدنية، وأنا من يساعدني؟."

تركته ومشيت، رأيت مجموعة من الشباب لا يتجاوز عمرهم السبعة عشر سنة يدخنون السيجارة ويتنافسون بمن يستطيع حبس نفسه أكثر، هه اللبناني لديه تاريخ بحبس النفس!. وقرب حاوية النفايات شابٌ وصبية يحاولان الاختباء كي لا يراهما أحد.

أحسست بعد ما رأيت، بأن بيروت تبكي النّاس الأصيلة، تزفّ أولئك الذين كانوا لها جبالًا عتيدة هزموا أعدائها بروحٍ عنيدة، هه يصلحُ هذا خطابًا سياسيًا ينام فيه الشعب سباتَ ستُ سنين دفعة واحدة. بدون خطاباتٍ لا يبصر الشعب ويعيد أخطائه التي اقترفها مع من عبد الكرسيّ سابقًا، أتخيّل نفسي أمامه وأنا أخاطبهم سأصير كما الكرسي. ولكن وأنا أمشي شعرتُ بشيءٍ غريب، في ذلك المقهى شيءٌ يدفعني للجنون. أبصرتُ في يومٍ بعيدٍ جدًا ذات الصحيفة التي بعدَ مشادّة مطوّلة مع النادل لإنشغاله قام بتنظيف الطاولة ووضع جريدة معظم اللّبنانيين لم يعودوا يستخدمونها سوى لتلميع الزجاج. وعلى هذه الصحيفة كان مدوّن عليها خبرٌ ليس كالأخبار القديمة، خبرٌ يقول بأنّ كاتبًا مجنونًا هرب من مستشفى للأمراض العقليّة يهلوسُ باسم مدينةٍ لم يُسمع عنها من قبلُ أيُّ لفظٍ ولم يُرَ لها حتى صورةً تذكاريّة. وهذه المدينة تسمى "بيروت" حسب ادعاءاته هو من تلك البلاد الشاميّة التي لم تنعم بالسلام لا هي ولا شقيقاتها الأخريات.
وإذ بي اكتشف أن هذا الكاتب هو أنا، في الصورة رجلٌ يشبهني.

الساعة **السابعة و 45 دقيقة**

تعود الصورة فجأة وأعودُ الى ذلك الكرسي، أوضّب أوراقي الملقات على الطاولة وأعطي النادل بعضًا من البقشيش. ولكن هذا خيال الكاتب لا تؤاخذوه في هذه الأمسية قد فرش لهلوساته سجادةً ورقيّة فأصبح يصدّق تخيّلاته الإنسيّة. وبصراحة السؤال بقي يخيفني عن وجودي وعن حقيقة أن بيروت مدينتي الأصليّة، أو أننا نحن الإثنان لسنا بموجودان ونعيش فقط في خيالِ كاتبٍ هرب للتو من مستشفى للأمراض العقليّة!.
أهذا ما أتمناه أن أفنى ويفنى لبنان؟، أهذا حلمي عن لبنان؟. ما زلتُ على طاولة المقهى والعرقُ ينزل منّي كأنّي سماءٌ والغيم يبكي عنّي. لا أستطيع التنفس كأن أحدًا وضع مخدّة على وجهي. أسمع أصوات من حولي يتهامسون، منهم من يصرخ بالمساعدة، وأنا أرتجف ودموعي تسيل أريد أمي. رجلٌ سيصاحب سنته الأربعين بعد بضعة أشهر يريد أمه. أشعر بجسدي يحترق.. أريد أن أتقيأ.

الساعة **الثامنة مساءً**

عندما أفتح عينيّ أرى نفسي في ذات المقهى، توقفت نوبة الهلع ولا أرى أحدًا ممن رأيت حولي. ولكن أثاث المقهى مختلف، بعد أن كان مهترئًا أصبح من أجود أنواع خشب الصاج. أستبدل مكبّر الصوت بتلفازٍ كبيرٍ من الإصدار الأخير من شركة سامسونغ. تحوّل حاسوبي المحمول من الطراز (HP pavilion) الى حاسوب Apple، نظرت الى يداي ساعتي كانت من أحدث ساعات شركة "آبل" وبدلة أبي القديمة التي أورثني إياها تحوّلت الى قميصٍ أبيض مع بنطالٍ

بلون ال"بيرو". نظرت الى يميني وجدتُ ذات الشاب والصبيّة ولكن مع طفلٍ، ثم الى يميني ذاك العجوز الكهل تحوّل الى عجوز لكن ذو كتيفين عريضين وأسنانٍ متينة وثيابٍ لا تخصُّ سنه.
قمت من مكاني كالأبله خرجت من المقهى كي أبحث عن الصبي ولكن لم أجده كان النور ساطعًا. انتظرت دقيقتان خارجًا علّي ألمحه ولكن لم أرَ سوى اختلاف هذه اللحظة عن سابقتها. كان شارع الحمرا مختلفًا كلّ الاختلاف عن شارع الحمرا الذي أذكره، لم أجد أيُّ متسوّلٍ ولا حتى أيّ حاوية نفايات تتقيّأ أكياسها ولا أكياس خارجها.
أنظر الى ساعتي إنّها **التاسعة صباحًا**، لا علمَ لي كيف تغيّر الوقت من اللّيل الى الصباح؟ أهذه اشارة؟، أننا أُخرجنا من الظّلماتِ الى النور. هممت بالمشي تاركًا أغراضي على تلك الطاولة، ولكن بهجة التغيير أعطتني شعورًا بالهرب والتحليل المستمران في آنٍ معًا. صوب محلّ الثياب البالية اختفت صورة الزعيم الذي سابقًا جوّع وقهر اللّبنانيين، كانت وجوه الناس مريحة وهادئة لدرجة الاستغراب. كم مرّ من دهورٍ لم نرَ هذا السلام في وجه اللّبناني؟. سألتُ أحد المارّة:" أخي أعتذر كم سعر صرف الدولار اليوم؟." متوجسًا أريد التأكد والاطمئنان. أجابني بسخرية:" انه ألف و500 ليرة أخي، شكلك غريب عن هنا صحيح؟"، لم أردّ وعدتُ أدراجي الى المقهى تاركًا ذلك الرجل خلفي يعانق ذهوله. ما إن تخطيتُ عتبة المقهى حتى وجدتُ ذلك الصبي على طاولتي، كان مع عائلته؛ أمٌ وأبٌ وثلاث أخوة. شعرتُ بدموعي تنهمر ووقفتُ أمامه بلهفة، نظر إليّ باستغرابٍ، حييته وحييت عائلته. ابتسمتُ له ابتسامة خرقاء وكأنّني أحاول اخباره أنه وأخيرًا يعيش طفولته ويرتدي ثيابًا تدفئه من لسعة البرد.
نظرت الى يميني حيث الشاب والصبية وطفلهما، ورائهم كانت صورة جريدة قديمة في برواز تقدمتُ نحوها كان اطار البرواز ملوّنًا بالذهبي. في الجريدة علمُ فلسطين ومكتوبٌ "مبارك التحرير فعلها رجال لبنان والشرق"، وأخيرًا فعلناها!. ما أحسستُ سوى بالنادل يعطيني أغراضي التي نسيتها ويعتذر وأناوله ما في جيبي وأخرج كالمجنون بظهرٍ محني لا يفهم شيء.
أنظر الى ساعتي إنّها **التاسعة والنصف**، لقد تأخرتُ على عملي. ولكن هل مازلتُ أمارس نفس العمل؟.
فجأة طنين في أذنيّ، وبياضٌ ساطع.
...:"أستاذ فلان هل تسمعني؟"
أنا:" أين أنا؟"
كانت امرأة بمريلةٍ بيضاء تدلّ على أنّها طبيبة.
...:"أنت هنا في المستشفى ألا تذكر، أنا دكتورة فلانة." لم أستوعب.
جالسٌ أنا على كنبة بنيّة.
...:"أكمل ما كنتَ تخبرني، توقفتَ عن حنينك إلى بلدٍ لم تسكن فيه أبدًا."

كنتُ ساكنًا لا أعرف ماذا حصل لي، يقولون أنني أعاني من الهلاوس الآن أذكر. ذلك الدفتر الذي أحمله طبيبتي طلبت منّي أن أبقيه معي كي أتابع مسار حياتي عندما تصيبني هذه النوبات وأفقد ذاكرتي.

أنا:" كان شعورًا جميلًا، لم يكن هناك مشاكل ولا خوفٌ من الغد. هذه اللحظات القليلة التي كنتُ فيها هناك شعرتُ بالامتنان والروعة، أردت البقاء أكثر. لم أفهم لماذا فرحتُ هكذا عندما وجدتُ الصبي مع عائلته رغم أنني لم أتحرك ساكنًا لمساعدته قبل!. حتى أنني بكيت، كان البلد رائعًا حتى الهواء كان منعشًا." توقفت.

الطبيبة:"بماذا تشعر الآن؟"

أنا:"أريد أن أبكي."

الطبيبة:"وما الذي يمنعك؟"

أنا:" ايماني بالعالم المتوازي، وأننا نحن اللّبنانيون فرحون في عالمٍ آخر، حيث لا حزن ولا جوع ولا حرب ولا أولاد حرام يأكلون لحومنا كي يشبعوا بطونهم. أربعون سنة تخايلي عشتُ هذا الكم من السنين وللآن نحن كما نحن، وإلى الأسوأ."

الطبيبة:"ممم، لعلّه خير، هذا حال الجميع."

أكرهها عندما تقول هذا وكأنّ ما أشعر به عادي. هممتُ بالوقوف كي أرحل،

الطبيبة:"إلى أين؟"

أنا:"إلى حيث تأخذني هلوساتي، تعبتُ من لعب دور المريض. لعلّي أعقل الناس هنا".

الطبيبة:"يا ليتنا جميعنا لدينا ما لديك من هلاوس، الواقع ثقيلٌ على أمثالنا الأصحاء.

أنا:"هل أنا مريض؟"

الطبيبة:" جميعنا، إلّا أنت. ولا عيبٌ في ابتغاء غدٍ أفضل، العيب فينا نحنُ من اعتدنا حالنا".

الساعة **العاشرة مساءً**

على ذلك الكرسي في المقهى، أكتب ونسيت ما أكتب، لكن دموعي هطلت على تلك الورقة.

تمّت بفضل الله